(٣) الحسن البصري[١]

ذكر الحسن البصري رحمه الله ورضي عنه:

مقوي النبوة، ومربّي الفتوة، منبعُ العمل والعلم، مجمعُ الورع والحلم، معدنيُّ العلم الاكتسابي والصدري، الشيخ المقدّم الحسن البصري روّح الله روحه.

مناقبُهُ كثيرة، ومنقبتُهُ غزيرة[٢] كان صاحب علمٍ ومعاملة دائمة، ذا خوفٍ وحزنٍ[٣]، وقد غشيه الحقُّ من جوانبه.

وكانت أمُّه من موالي أم سَلَمة رضي الله عنها، وإذا كانت أمُّه مشغولةً ببعض الأشغال، وهو رضيعٌ، فيبكي، فتلقمه أمُّ سلمة ثديها، وتنزل قطراتُ اللبن في جوفه، ولذا يقال: إنه مُربّى ببيت الرسولِ ﷺ، وما ظهر فيه من الخيرِ والبركةِ والعملِ والعلم ما كان إلاّ ببركةِ لبنِ أُمِّ سلمة رضي الله عنها[٤].

---

(١) ترجمته في: طبقات ابن سعد ٧/ ١٥٦، طبقات خليفة ٢١٠، تاريخ خليفة (انظر الفهرس)، الزهد لأحمد ٢٥٨، التاريخ الكبير ٢/ ٢٨٩، المعارف ٤٤٠، أخبار القضاة ٢/ ٣، الجرح والتعديل ٣/ ٤٠، الثقات لابن حبان ٤/ ١٢٢، مشاهير علماء الأمصار ترجمة ٦٤٢، حلية الأولياء ٢/ ١٣١، أخبار أصفهان ١/ ٢٥٤، طبقات الفقهاء ٨٧، صفة الصفوة ٣/ ٢٣٣، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ١٨٦، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٦١، وفيات الأعيان ٢/ ٦٩، تهذيب الكمال ٦/ ٩٥، سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٦٣، تاريخ الإسلام ٤/ ٩٨، تذكرة الحفاظ ١/ ٧١، ميزان الاعتدال ١/ ٥٢٧، معرفة القراء ١/ ٢١، الوافي بالوفيات ١٢/ ٣٠٦، البداية والنهاية ٩/ ٢٦٦، غاية النهاية ترجمة ١٠٧٤، تهذيب التهذيب ٢/ ٢٦٣، النجوم الزاهرة ١/ ٢٦٧، الكواكب الدرية ١/ ٢٥٤، شذرات الذهب ١/ ١٣٦.

(٢) في (أ): ومناقبه عزيرة، ولعلّها نسبةً إلى عُزَير عليه السلام.

(٣) في (ب): ذا خوفٍ وحذر.

(٤) كانت أم الحسن مولاة لأم سلمة زوج النبي ﷺ، وكانت أم سلمة تبعث أم الحسن في =

ونقل: أنّه شربَ من كوز النبيِّ عليه السلام[١] في بيت أم سلمة رضي الله عنها، فسأل النبيُّ ﷺ: «مَنْ شربَ هذا الماء؟» قالوا: هذا الطفل. فقال ﷺ: «يَسري فيه من علمي مقدارُ ما شرب من هذا الماء».

وحُكي أنه جاء النبيُّ ﷺ إلى بيتِ أمِّ سلمة رضي الله عنها، فوضعوا الحسنَ في حجره عليه السلام، فدعا له ﷺ، فمن ذلك وجد ما وجد.

ونقل: أنه حين ولد ذهبوا به إلى عمر رضي الله عنه قال: سمّوه حسنًا؛ فإنه حسنُ الوجه.

وأمُّ سلمة رضي الله عنها كانت تربّيه وتُشفقُ عليه، وبسبب شفقتها حصل لها لبنٌ حتى أرضعته كما مرّ.

وكانت رضي الله عنها تقول: اللهم، اجعله مقتدى الخلائق.

وقد صاحب مئةً وثلاثين من أصحاب الرسول ﷺ، وخدم سبعينَ من المشايخ، وصحب عليًّا رضي الله عنه، وحصل له منه فتوحٌ كثيرة.

وسببُ توبته وحاله في أول الأمر على ما قيل: إنه كان رجلاً جوهريًا، ويقال له حسن اللآلىء، ويتَّجِرُ إلى الروم، ويعامل أمراءَ الروم ورؤساءهم، فذهب في بعض أسفاره إلى الروم، وعرض له حاجةٌ إلى الوزير، فاجتمع به، وتحدّث معه، فقال له الوزير: نذهب إلى موضعٍ، هل توافقنا؟ قال: نعم. فأمر له بفرسٍ مسرج، فركبوا، وذهبوا، قال الحسن رضي الله عنه: فإذا نحن بخيمةٍ مضروبةٍ في الصحراء، مصنوعةٍ من الديباج، وأطنابها من الحرير، وأوتارها من الذهب، وجاء جماعةٌ من الأجناد ملبسةً بلباس الحرير والحرب وآلاتها، وطافوا بالخيمة، وتكلَّموا بكلامٍ ما فهمت معناه، وذهبوا[٢]، ثم جاءت من

= الحاجة، فيبكي وهو صبي، فتسكته بثديها. انظر أخبار القضاة لوكيع ٢/ ٤، ٥، وتهذيب الكمال ٦/ ١٠٣.

(١) في (أ): من كف النبي ﷺ.

(٢) في (ب): وتكلموا بشيءٍ، وذهبوا.

الفلاسفة والأحبار قريبًا من أربع مئة، وكذلك طافوا بها وتكلّموا بشيءٍ، وجاءتْ جماعةٌ من الشيوخ، وطافوا حولها وتكلّموا وذهبوا، وجاءت جماعةٌ من الجواري الحسان الصباح الوجوه، أكثر من مئتين، ومع كل واحدةٍ صفحةٌ من الذهب والفضة، والجواهر والآلىء، وطافت بالخيمة، وتكلّمت وذهبت، ثم جاء قيصرُ ملك الروم والوزيرُ الكبير معه، ودخلا الخيمة وخرجا، قال الحسن: وأنا مُتعجّبٌ مُتحيّر في هذا الأمر، فسألتُ الوزير عن هذا الحال، قال كان لملك الروم ابنٌ صاحبُ جمالٍ وكياسةٍ وعلم، لا يُوجد في الدُّنيا نظيرُه، وكان له شجاعةٌ وسخاوةٌ ولطفٌ وكرم، وكان أبوه يُحبُّه محبَّةً شديدةً، فعرضَ له مرضٌ عجز الأطباءُ والحكماءُ عن معالجته، ولم ينفعْهُ شيءٌ من المعالجة والمداواة.

أقولُ: كما قيل[١]:

وإذا المنيَّـةُ أنشبَـتْ أظفـارَهـا ألفيـتَ كـلَّ تميمـةٍ لا تنفـعُ

والله أعلم.

ثم تُوفّى، ودُفن في هذا المكان[٢]، والملكُ يأتي لزيارته في كلِّ سنةٍ مرّةً مع هذه الطوائف، ويقول: كلٌّ بابنِ الملك، لو قُبل فيكَ فداءٌ لفديناك بأنفسنا وأجسادنا، ولو حصلَ المقصودُ بالشفاعة لشفعنا، أو بالمحاربة لحاربنا، أو بالمال والجواري لأعطينا، ولو نفعَ العلمُ والحكمةُ والفلسفة لعملنا[٣]، لكنْ قد أماتَكَ من لا يمكن المعارضةُ معه، ولا تَنفعُ الحيلةُ، ولا تُفيد المبارزةُ والمحاربة، ثم يدخل الملك في الخيمةِ ويقول: يا ولدي، ويا قرّة عَيني، ويا ثمرةَ فؤادي، ويا فلذة كبدي، جئتُ بالأجناد الملبَّسة، والعساكر المسلَّحة، والشيوخ المكرمة، والجواري المنعّمة، والأموال المجتمعة، والحكماء

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي. انظر المفضليات ٤٢٢ القصيدة (١٢٦).

(٢) في (أ): وفي نسخة: في هذه الخيمة.

(٣) في (أ): لعلمنا.

المفخمة، ولا ينفعُ فيك حيلةٌ ولا تدبير، والسلامُ عليك إلى سنةٍ أُخرى، ويرجع.

فلمّا سمعَ الحسنُ هذا الكلام من الوزير، وعرف هذا المعنى وأثّرَ في قلبه تأثيرًا بليغًا، فعزم في الحالِ على الرجوع، ورجع إلى البصرة، وحلف أن لا يضحكَ في الدنيا حتّى يتحقَّقَ عاقبةَ أمره، واجتهد في العبادةِ، واشتغلَ بالمجاهدة إلى حدٍّ لم يمكن فوقه لم يتيسَّرْ لأحدٍ مثلُهُ، حتى حُكي أنه ما نقضَ الوضوءَ[١] إلاّ في الخلاءِ سبعين سنة، وبالغَ في العُزلة عن الخلق حتى قطعَ آمالَهُ عنهم، لا جرم فاق الجميع.

وحُكي أنَّ رجلاً قام في مجمعٍ وقال: لِمَ تفوَّقَ علينا الحسنُ، وارتفع شأنُهُ؟ وكان واحدٌ من الأكابرِ حاضرًا هناك، فقال: لاحتياجِ الكلِّ إلى علمه، وهو لا يَحتاجُ إلى أحدٍ مقدار شعيرة، والكلُّ مُحتاجٌ إليه في الدين، وهو فارغٌ من دنياهم؛ لأجلِ هذا صارَ مُقتدًى للجميع.

نقل: أنّه كان يَعظُ الناسَ في أسبوعٍ مرةً، فلو أنّه حضرَ المجلسَ للميعاد، ولم تكن رابعةُ العدويةُ حاضرةً لتركَ الوعظ، فقيل له: يا شيخ، كم يحضرُ من الأكابر والأشراف! ولا تشتغلُ بالوعظ لهم، وتشتغلُ به لأجلِ امرأةٍ مُقنّعة! فقال: لأنّا نحصّل شرابًا للفيل، فكيف نصبُّهُ في حوصلة البغاث[٢]؟!

وقيل: إنّه حين يشتدُّ الحالُ على الحاضرين بحيثُ تكادُ أفئدتُهم تحترقُ، وأعينُهم تفيضُ دموعًا كان يتوجَّهُ إلى رابعة، ويقول: يا مقنَّعة، هذا من جمراتِ قلبك.

قيل له: ما الإسلام؟ ومن المُسلم؟ قال: الإسلام الذي ذكروه في الكُتب الفقهية، والمسلمون تحت التراب.

---

(١) في (أ): حتى ما كان ينقض الوضوء.

(٢) كذا في الأصلين، وفي المطبوع المترجم صفحة ٢١٦: يقول: إننا لا نستطيع صبَّ الحساء ـ التي نكون قد أعددناها من أجل حوصلةِ الأفيال ـ في صدور النمل.
والبغاث: طير ضعيف صغير.

أقول: كأنه أشارَ إلى ضعف إسلام الحاضرين، وأنَّ المسلمين الكاملين هم المدَفونون، يعني القرن السابق، يُؤيّدُهُ قولُه ﷺ: «خيرُ القرون قرني، ثم الذين يلونهم. . .»[١] الحديث، والله أعلم.

وسئل أيضًا: ما أصل الدين؟ قال: الورع. فقيل: وما يُفسد الورع؟ قال: الطمع.

وقيل له: ما جناتُ عدن؟ قال: غرفةٌ من ذهبٍ، لا طريق فيها إلاّ لرسولٍ أو صدّيقٍ، أو شهيد، أو سلطانٍ عادلٍ.

وقيل له: إذا مرضَ الطبيب، فكيف يُعالجُ غيره؟ قال: عليه أن يعالجَ نفسَه أولاً، ثم غيره.

وقال: استمعوا إلى كلامي؛ فإنَّ علمي يَنفعُكُم، وعملي لا يضرُّكم[٢].

وقيل له: يا شيخ، قلوبُ الحاضرين نائمةٌ، ولذا لا تؤثّر فيها كلماتُك. قال: ليتها كانت نائمة، إذ لو كانت نائمةً لتنبَّهتْ بأدنى تحريك؛ ولكنها ميتةٌ، لا تتنبَّهُ بالتحريك.

وقيل له: بيننا أقوامٌ يخوّفوننا بالموعظة حتى تكاد قلوبُنا تنقطعُ، وأكبادُنا تتفتَّتُ، فهذا يجوزُ أم لا؟ قال: مُصاحبتُكم مع قومٍ يخوّفونكم اليومَ حتى تأمنوا غدًا خيرٌ من مُصاحبتكم مع أقوامٍ يؤمّنونكم اليومَ فتخافون غدًا.

قيل له: يحضرُ في مجلسِ وعظك مَنْ يحفظُ كلامَكَ ليعترضَ عليه. قال: مَنْ عرفَ نفسه، وطمعَ في الفردوس الأعلى، ومجاروةِ ربِّه سبحانه وتعالى لا يَطمعُ أبدًا في سلامتِهِ من أَلسنةِ الناس؛ فإنَّ الله تعالى لم يقطعِ الألسنةَ عنه تبارك وتعالى.

---

(١) حديث رواه البخاري (٢٦٥٢) في الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة زور، ومسلم (٢٥٣٣) في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة، والترمذي (٣٨٥٨).

(٢) وكأن الكلام ترجمة لبيت الخليل بن أحمد في عيون الأخبار ٢/ ١٢٥:

اعمـل بعلمـي ولا تنظـر إلـى عملـي ينفعْك قولي ولا يضررك تقصيري

أقول: وفي هذا المعنى أنشد شعرًا:

قيـــل إنَّ الإلـــهَ ذو ولـــدٍ وقيـل إنَّ الـرسـولَ قـد كَهَنـا
مـا نجـا اللهُ والـرسـولُ معًـا مـن لسانِ الـوَرى فكيف أنا[1]

[والله أعلم].

وقيل له: لا يبلغُ أحدٌ درجةَ دعوةِ الخلق، ومقامَ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر إلاّ بعد تطهيرِ نفسه عن الأخلاق الردية، وتهذيبها عن الصفات الذميمة. قال: لا يتمنّىٰ الشيطانُ إلاّ أن يعمل عملاً ينسدُّ به بابُ الأمر بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر.

وقيل: كان رجلٌ كلَّما سمعَ آيةً من القرآن يُصعق، ويُلقي جسده على الأرض، فقال له الحسن: إن قدرت على أن لا تفعل هذا فقد أَحرقْتَ معاملتك، وإن لم تقدر على أن لا تفعلَ فقد ألقيتنا وراءك بعشرة منازل. ثم قال: الصعقةُ من الشيطان، فهو قد أشار في هذا الكلام إلى أن الاضطرابَ عند سماعِ كلام الله وذكره وغير ذلك إنْ كان اختياريًا حرام وتصنّع، وإلاّ فجائزٌ لا محالة.

أقول: ويدلُّ على الجواز عند الاضطرار قولُه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] **والله أعلم.**

نقل: أنّه كان مُشتغلاً في بعض الأيام بالوعظِ، إذ دخلَ عليه الحجَّاجُ بمَهابته وحشمته وحدّةِ طبعه، فلم يتغيّرِ الحسنُ، ولم يتنزّلْ من كلماته حتى أتمَّ المجلس، ثم قامَ الحجَّاجُ وذهب إليه، وأخذَ بعَضُدِهِ، وقال: انظروا إلى هذا الرجل.

حُكي أنَّ الحجّاج رُئي في المنام بعد أن أدركه الحمامُ كأنَّه في عرصاتِ القيامة، وقيل له: ماذا تطلب؟ فقال: ما يطلبه الموحّدون.

---

(١) ديوان علي بن أبي طالب ٤٨٣.

قال بعضُهم: إنّما قال هذا لأنَّه قالَ عند النزع: إلهي، أظهرْ آثارَ الكرم، وافتحْ أبوابَ المغفرة؛ فإنَّك أكرمُ الأكرمين، وأرحمُ الرَّاحمين، وقد اتَّفقتْ آراءُ الناس، واجتمعتْ ظنونُهم على أنَّكَ لا تغفرُ لي، وأنك فعّالٌ لما تُريد، فاغفرْ لي على خلافِ اعتقادهم. فبلغَ الحسنَ هذا الكلامُ، فقال: ذهب بالآخرةِ أيضًا ذلك الخبيثُ بالشطارة.

نقل أنَّ عليًا المُرتضى كرمّ الله وجهه دخلَ البصرة، وفي يده زمامُ مطيّته، ووقف فيها ثلاثة، ومنعَ جميعَ المذكّرين، ثم جاءَ مجلسَ الحسن، وقال: أنت عالمٌ أو مُتعلّم؟ قال الحسن: لا ذاك ولا هذا؛ ولكنّي بلغني أحاديثُ من رسولِ الله ﷺ أَرويها وأَذكرُها للمسلمين. فلم يمنعْهُ عليٌّ رضي الله عنه، وقال: يليق بهذا الشاب أن يتكلّمَ. وذهب، فعرفه الحسنُ بالفِراسة، فنزل من المنبر، وسعى خلفه، فلمَّا لحقَهُ، تشبَّثَ بأذياله، وقال: يا أمير المؤمنين، أسألُكَ بالله أَنْ تُعلّمني الوضوءَ. فطلبَ ماءً، وعلَّمهُ الوضوء.

وحُكي أنّه انقطعَ المطرُ من البصرة، وأجدبتِ الأرضُ، وخرجَ الناس للاستسقاءِ في كثرةٍ عظيمةٍ، والحسنُ معهم، فالتمسوا منه أن يصعدَ المنبر، ويدعوَ لهم، فقال: يا قوم، تطلبون المطر؟ فقالوا: نعم. قال، انفوا الحسنَ من المدينة حتّى يسقيَكُم اللهُ؛ فإن انقطاع الأمواه إنّما هو سببه.

(١ وحكي أنه ما رُئي مبتسمًا قطُّ؛ لغلبة الخوف عليه.

وروي أنه كان يُحدِّثُ بهذا الحديث: «آخرُ مَنْ يخرجُ من النار رجلٌ يُقالُ له هنّاد»[1] فقال: ليتني أكون الرجلَ؛ فإنَّ له رجاءَ الخروج من النار.

أقول: إنما قال كذلك لخوف الخاتمة. والله أعلم.

روي عن بعض أصحابه باتَ عنده ليلةً، وكان يَئِنُّ ويبكي ولا يسكنُ، فقال

---

(١) روى الخطيب قوله ﷺ: «أخر من يدخل الجنة رجل يقال له جهينة، فيقول أهل الجنة: عند جهينة الخبر اليقين» وحكى السُّهيلي أنه جاء أن اسمه هناد. انظر «كشف الخفا» ١/ ١٤ (١٦).

له صاحبُ البيت: لِمَ هذا الأنينُ والبكاءُ يا شيخ؟ وأحوالُك مضبوطةٌ، وجميعُ أعمالِكَ بالعبادة مربوطة. قال: أخافُ أنّي خطوتُ بغير قصدٍ واختيارٍ خطوةً في غير رضا الله، فيقال للحسن: ما بقي لك عند الله مقدارٌ ولا وزنٌ واعتبار! ثم يُردُّ الأمرُ بالردِّ وعدم القبول١)[1].

وحكي أنَّ رجلاً كان عند باب صومعته، وهو رحمه الله على السطحِ يُصلّي ويبكي في السجدة، حتى سالَ الدَّمعُ من الميزاب، وتقاطرَ على ذلك الرجل، فدقَّ الرجلُ البابَ، وقال: يا أهل البيت، هذا الماء المُتقاطرُ نجسٌ أم لا؟ فسمعَ الحسنُ، فقال: اغسله؛ فإنه دمعُ عينِ العاصي، لا تجوزُ الصلاة به.

حكي أنّه رحمه الله شيَّعَ جنازةً إلى القبرِ، فلمّا وضع الميتُ في القبر، جلسَ الحسنُ على شفيره، وبكى حتى صارَ التُّرابُ طينًا، ثم قال: أيُّها الناس، انظروا إلى هذا القبر، فإنَّه آخرُ منزلٍ من منازل الدنيا، وأولُ منزلٍ من منازل الآخرة، فلا تغترّوا بدارٍ يكون آخره هذا، وكيف لا تخافون من دارٍ يكون هذا أوله؟ فأصلحوا حالَ أوَّلكم وآخركم. فبكى كلُّ من حضرَ هناك بكاءً عظيمًا.

وقيل: عبرَ يومًا في بعض المقابر، وقال: في هذه المقابرِ أُناسٌ لا يلتفتونَ إلى الجنَّة، لكنِ امتزجَ بترابهم حسراتٌ لو عُرضت على أهلِ السموات والأرض لتناثرت أعضاؤها على الأرض.

نقل عنه أنّه جرى عليه في حال طفولته معصيةٌ، فكلّما خيط له قميصٌ، كان يتذكَّرُ من تلك المعصية، ثم يشقُّ جيبَهُ، ويبكي حتى يُغشى عليه[2].

وروي أنَّ عمر بن عبد العزيز كتبَ إلى الحسن، وطلبَ منه نصيحةً مُختصرةً يحفظُها ويتذكَّرُها دائمًا، ويعمل بها، فكتب الحسنُ على ظهر الكتاب: يا أمير المؤمنين، إذا كان اللهُ معك، فأنت ترجو من غيره؟!

---

(١) بين الهلالين ليس في (ب).

(٢) في المطبوع المترجم صفحة ٢٢٠: وكان كلّما يحيك قميصًا جديدًا، كان يكتب تلك المعصية على تلابيبه، ثم يبكي طويلاً حتى يفقد وعيه.

وكتبَ إلى عمر رضي الله عنه نوبةٌ أخرى: احسبْ في نفسك أنّه قد أتاكَ يومٌ، تقول فيه: ما كانتِ الدنيا قطُّ.

وكتب ثابت البُناني رحمه الله إلى الحسنِ، وطلبَ منه أن يأذنَ له في الحضور إليه، قال الحسن رحمه الله: اتركنا نعش في سترِ الله تعالى؛ فإنَّ في المصاحبة يَطَّلِعُ كلٌّ منّا على عيب صاحبه، ويصير سببًا للتفرقة والبغض.

روي أنّه نصحَ سعيدَ بنَ جبير، فقال له: لا تعملْ ثلاث خصال أبدًا: لا تقربْ من السُّلطان وإن كان محضَ الشفقة على خلقِ الله، ولا تخلو بامرأةٍ أبدًا، وإن كانت رابعة العدوية، وأنت تعلّمُها كتابَ الله تعالى، والثالث: ولا تجالس الأغنياء.

قال مالك بن دينار رحمه الله: سألتُ الحسنَ رحمه الله عن عقوبة العالم، قال: هي موتُ القلب. قلت: وما موت القلب؟ قال: طلبُ الدنيا.

قال عبد الله[1]: قصدتُ يومًا أن أُصلّي صلاةَ الصبح في مسجد الحسن بالجماعة، فلمّا أتيتُ إلى باب المسجد وجدتُهُ مَردودًا مُغلقًا، والحسنُ يدعو، وقومٌ خلفه يقولون: آمين، قلت: عسى أصحابُ الحسن قد جاؤوا إليه، صبرتُ حتى طلع الفجر، أردتُ أن أدخلَ المسجد، فإذا البابُ مفتوح، فدخلتُ، فما وجدتُ فيه غيرَ الحسن، فتحيَّرتُ إذ ما رأيتُ هناك الجماعةَ الذين يقولون آمين، فلمّا صلّينا الصلاةَ حكيتُ الحكاية، وأَقسمتُ بالله أن يُطلعني على هذا السرِّ، فقال رحمه الله: يأتي إليَّ كلَّ ليلةٍ طائفةٌ من جنِّ نَصِيبين، ويلتمسونَ منّي أن أدعوَ لهم، وهم يُؤمِّنون، أي يقولون آمين، ثم استكتمني هذا الحال.

قال رجلٌ من أكابر الدين: سافرتُ في جماعةٍ مع الحسن رحمه الله للحجِّ، ووصلنا إلى بئرٍ، وما كان هناك دلوٌ ولا حبلٌ. وفزعنا من التلف، فقال الحسن رحمه الله: لا تحزنوا، أنا أشتغلُ بالصلاة، وأنتم استقوا الماءَ من البئر. فلمّا

---

(١) في المطبوع المترجم ٢٢١: قال شيخٌ: ذهبتُ..

شرعَ في الصلاة امتلأتِ البئرُ من الماء حتى وصل الماءُ إلى رأسها، فاستقينا الماء، وشربنا، وملأنا الأوعية، ولمّا عبرنا من ذلك المكان وجدَ الحسنُ رحمه الله تمرةً في الطريق، أخذها وقسمها علينا، وكان نواته ذهبًا، بعناهُ في المدينة، واشترينا بثمنه طعامًا، وأطعمنا الفقراء.

حكي أن أبا عمرو[١] الذي هو إمامٌ في علم القرآن، وعلم القراءةِ كان يتردَّدُ إليه صبيٌّ صبيحُ الوجه لأجل تعلّم القرآن[٢]، فحسَّنه إبليسُ في عينه، وسوّلَ إليه، فاختلّى به أبو عمرو[٣] في بعض الأيام، وقصد أن يقبّلَهُ، فلمّا همَّ به أنساه اللهُ تعالى جميعَ القرآن من أوّله إلى آخره، فندمَ أبو عمروٍ رحمه الله من ذلك القصد، ووقعت في فؤاده نارٌ، واضطربَتْ أحوالُهُ، فجاء إلى الحسنِ رحمه الله، وبكى كثيرًا، وقصَّ عليه الحكاية، واستدعى منه أن يدعو له في ذلك، فحزنَ الحسنُ من ذلك، وقال: هذا موسم الحجِّ، سافرْ مع الحجّاج، وحجَّ البيت، وبعد الفراغ اذهبْ إلى مسجدِ الخيف تر هناك شيخًا جالسًا في المحراب، لا تشوّشْ عليه الحال؛ بل اصبرْ حتى يفرغ[٤]، ثم تقرّب إليه، والتمسْ منه أن يدعو لك، فإن دعاءَه عند الله مُستجاب. فامتثلَ أبو عمرو، وذهب إلى مكّة شرّفها الله، وبعد الفراغُ من أعمال الحجِّ قصدَ مسجد الخيف، ورأى الشيخَ الذي وصّاه الحسنُ به جالسًا في محراب المسجد، وحوله جماعةٌ، جلس أبو عمرو في ناحيةٍ من المسجد، إذ دخل عليه رجلٌ، وعليه ثيابٌ بيضٌ نظيفة، قام الشيخُ والأصحاب كلُّهم فاستقبلوه، وسلّموا عليه، ومكثوا إلى وقت الصلاة، فقام الرجلُ وصلّى إمامهم، واقتدى به الشيخُ مع الأصحاب، ولمّا قضوا الصلاة، وتفرّقَ الجماعُة، وصار المسجدُ خاليًا، وبقي

---

(١) هو زبّان بن عمّار التميمي المازني البصري أبو عمرو، ويلقّبُ أبوه بالعلاء (٧٠ـ ١٥٤هـ) من أئمة اللغة والأدب، وأحد القرّاء السبعة.

(٢) في (ب): تعلم القراءة.

(٣) في الأصلين: فتخلّى به أبو عمرو.

(٤) في (أ): حتى يخلص.

الشيخُ وحده، قام إليه أبو عمروٍ وسلّم عليه، وقال: اللهَ الله يا شيخ، ادعُ اللهَ لي، وحكاهُ الحكايةَ، فاغتمَّ له الشيخ، ونظرَ بطرفِ العينِ إلى السماء، وما ارتدَّ إليه نظرُهُ، إذ تذكّر أبو عمرو جميعَ القرآن ببركة دعائه، قال أبو عمرو رحمه الله: تمرَّغتُ بين يديه على التراب من غايةِ الفرح، وقبَّلتُ رجله، قال الشيخ: من دلّكَ عليَّ، وأرشدكَ إليَّ؟ قال أبو عمرو: الحسن البصري. فتبسّمَ الشيخُ، وقال: فضحني الحسن، وأنا أيضًا أفضحُهُ، ثم قال لي الشيخُ: إن الرجلَ الذي جاء إلينا، وأكرمناه وصلّينا معه الصلاةَ كان هو الحسنُ، يجيء إلينا كلَّ يومٍ، ويُصلّي بنا الظهرَ، ثم يُصلّي العصرَ بالبصرة، ثم قال الشيخ: من كان له إمامٌ مثل الحسن كيف يحتاجُ إلى غيره، ولا يستدعي منه؟!

حكي أن رجلاً في زمانه كان له فرس قد قَرُبَ من الهلاك، وصار الرجل عاجزًا مُتحيِّرًا في شأنه، فذهب صاحبُ الفرس إلى الحسن البصري رضي الله عنه، وشرحَ عنده الحال، فاشترى الحسن ذلك الفرسَ منه بأربع مئة درهم، وسلّم الثمن إليه، فلّما جنَّ عليه الليلُ رأى الرجلُ في منامه فرسَهُ يرعى في مرجٍ من مروج الجنة، ومعه أربعة أمهرة[1] سمان شهب، قال: لمن هذا؟ قالوا: للحسن البصري، ولكن كانت لك قبله. فانتبه، وجاءَ من الغد إلى الحسن البصري، واستقالَ منه البيع، وأظهرَ فيه ندمَهُ، قال له الحسن: اذهب، فالذي رأيتَهُ أنت البارحة، فأنا رأيتُه بارحة أمس. فاغتمَّ الرجلُ ورجع، ثم رأى الحسنُ في ليلته غُرفًا ومناظرَ عاليةً في الجنة، فسأل: لمن هذه؟ قالوا: لمن أقالَ بيعَ نادمٍ. فطلبَ الحسنُ رضي الله عنه في اليوم الثاني ذلك الرجل، وفسخ العقد، وأقال البيع.

نقل: أنّه كان جيرانُ الحسن[2] مجوسيًّا اسمه شمعون، قد عبدَ النارَ سبعين سنة، ثم لمّا حضرته الوفاةُ أخبر الحسنَ عن حاله، قام إليه أداءً لحقِّ المجاورة،

---

(١) في (أ): ومعه أربع مئة مهر.

(٢) كذا الأصلين، ولعلّها: أنه كان جار من جيران الحسن مجوسيًا.

فرآه قد أسودَّ ظاهرُهُ وباطنه من النار التي عبدها، قال: خفْ من الله تعالى؛ فإنَّ عمرَكَ الذي كان رأسَ مالك قد انقضى في النار والدخان، وأغضبتَ الله تعالى عليك، وما عملتَ برضاه أصلاً، فاليومُ يومُ الندم والتوبة والإسلام والاستغفار، عسى الله أن يتوبَ عليك ويرحمَكَ. قال المجوسيُّ: يمنعني عن الإسلامِ ثلاثةُ أشياء، الأول أنَّ أهلَ الإسلام يذمّونَ الدُّنيا ليلاً ونهارًا، ثم يطلبونها سرًّا وجهرًا. الثاني: أنَّهم يقولون ويعلمون أنَّ الموتَ حقٌّ، ثم لا يتهيؤون له ولا يعدّون أسبابها. الثالث: أنهم يعتقدون أنَّهم سيرون الله تعالى في القيامة، ثم لا يَعملون برضاه. قال الحسنُ رحمه الله في نفسه: إنّ هذا ليس من كلامِ المُنكرين، ثم قال له: المؤمنون يعملون ما ذكرت؛ ولكنّهم مُقرّون بوحدانية الله تعالى، لا يصرفون أعمارَهم في عبادة النار مثلكم، وليس للنار وفاءٌ أصلاً؛ فإنّكَ عبدتها سبعين سنة، وتقرَّبتَ إليها، وأنا ما عبدتُها قطعًا، تعالَ ندخل فيها، ثم ننظر أنها: هل تَحرقني أم تحرقُكَ؟ بل تحرقنا جميعًا، إلاّ إذا منعها اللهُ تعالى عن الإحراق، فإنّها لا تقدرُ على إحراق شعرةٍ على جسد موحِّدٍ. ثم أدخلَ الحسنُ يدَهُ في النار، وقال للمجوسيِّ: وافقني، وأدخل يدَكَ أيضًا فيها. فما قدرَ المجوسيُّ على ذلك، ولم تحرقِ النارُ بقدرةِ الله تعالى شعرةً من يدِ الحسن[1]، وما وصلَ إليها ألمٌ، فلمّا رأى المجوسيُّ المشركُ ذلك تحيَّرَ وتعجَّبَ منه، وصُبْحُ العرفان آخذٌ في الطلوع، وليلُ النُّكران شرعَ في الرجوع، قال للحسن: بعد أن عبدتُ النارَ سبعين سنةً، وما بقي من عمري إلاّ أنفاسٌ معدودة لا تسعُ إلاّ شيئًا قليلاً، فماذا أَعملُ، وما التدبيرُ والحيلة؟ قال الشيخ: التدبيرُ أن تُؤمنَ بالله. قال المشركُ: فإن أعطيتني خطًّا كتبتَهُ بيدك، وتصيرُ لي ضامنًا بالرحمة والعفو وترك العقاب أنا أؤمن، وأَدخلُ في زمرة المؤمنين، وإن لم تُعطني خطَّ يدك فلا. فكتبَ الحسنُ رحمه الله كتابًا بهذا المعنى، وأعطاه إياه، قال المُشركُ: اشهدْ على ذلك جماعةً من عدول البصرة؛ فإنّي خائفٌ من الله تعالى غايةَ الخوف. ففعلَ

(١) في (ب): شعرة من جسد الحسن.

ما قالَ، فأخذ المُشركُ المجوسيُّ ذلك الكتاب، وبكى كثيرًا، وآمن بالله وكُتبهِ ورسلِهِ واليوم الآخر، ووصّى الحسنَ، وقال: أُريد أن تغسّلني بيدك، وتضعَ الخطَّ في يدي ليكون حجَّةً لي عند الله، وتدفنني في مقابر المسلمين. فلمّا أتمَّ الوصيةَ خرجتْ روحُهُ، وتولّى الحسن ما وصّاه به، وصلّى عليه في ناسٍ كثيرٍ من المسلمين، ثم وقعَ اضطرابٌ في قلب الحسن من هذا الفعل، وصيرورته ضامنًا له، وما نامَ تلك الليلة من هذا الفكر[١]، وكان يُصلّي ويقول في نفسه: ماذا فعلتُ، أنا أعطيتُ خطًا على جهلٍ، واستجريتُ على هذا الجهل العظيم، والخطب الجسيم[٢] إذ ليست رحمة الله في تصرّفي، وأنا غريقٌ في بحرٍ موّاجٍ، كيف أَقدرُ على تخليص غيري؟ وكان في هذا الفكر، إذ أخذه النعاس في السحر، فرأى شمعون في المنام، وله وجهٌ وضيءٌ أضوَأَ ما يكون، وعلى رأسه تاجٌ، وعليه حلّةٌ، وهو يتبسّمُ ويطوف في رياض الجنة في غاية البشاشة والفرح والسرور، قال له: يا شمعون، كيف حالك؟ فقال: أتسألُ عن حالي وأنت تشاهدني وتنظرُ إليَّ! إنّ الله تَبارك وتعالى رحمني، وأنزلني في دار كرامته، وغمرني بأنواع نعمته، وشرّفني برؤيته، وما فعل معي من اللطف والإحسان لا تُحصيها العبارة، ولا يحويه التقرير[٣]، وأنت يا شيخ قد خرجتَ من الضمان، خذْ كتابَكَ؛ إذْ لا حاجةَ لي بعدُ إليه. فأخذَ الشيخُ الكتابَ، وانتبه من النوم، والكتابُ في يده، فبكى حتى غسل المكتوبَ بدموعه، وقال: إلهنا ومولانا، علمنا أن لطفَكَ وإحسانك لا يحصل بعلّةٍ، وإنّما هو محضُ تفضُّلٍ وامتنان، من ذا الذي يصيرُ خاسرًا لديك، وأنت تَرحمُ مَجوسيًّا عبدَ النارَ طولَ عمره وأيام دهره.

نقل: أنّه كان فيه ـ رحمه الله ـ من الانكسارِ والتواضع ما لا يوصف، حتى إنه ما كان ينظر شخصًا من الأشخاص إلاّ ويعدُّه أشرفَ من نفسه وأفضلَ، فاتّفقَ

---

(١) في (ب): من هذا الفعل.

(٢) في (أ): والخطر الجسيم.

(٣) في (ب): ولا يحويه التقدير.

له يومًا من الأيام مسيرٌ إلى ساحل دجلة، رأى رجلاً أسودَ، وعنده امرأةٌ وقارورةٌ، وكان يتجرَّعُ من القارورة، ففكَّرَ الحسنُ: أنَّ هذا الرجل، هل هو خيرٌ مني؟ ثم قال في نفسه: لا شكَّ أنَّه خيرٌ منّي، إلاّ أنه بظاهر الشرع جالسٌ مع امرأةٍ، ويشربُ الخمرَ، فما تمَّ هذا الخاطرُ في باله إذ طلعَ مركبٌ على الشطِّ، وفيه حملٌ ثقيل، وجماعةٌ من الناس، ومالَ إلى جانبٍ وغرق، وكان فيه سبعةُ أشخاصٍ، فغرقوا، فالأسودُ المذكورُ نزعَ ثيابَه في الحال، ورمى نفسَه في الماء، وأمسك منهم اثنين بيديه، واثنين برجليه، واثنين بضرسه، وأخرجهم من الماء، ثم صاح إلى الحسن، وقال: يا حسن، أنا أنجيتُ بتوفيق الله ستَّةً منهم، فخلّصْ أنت هذا الواحد الباقي من الغرق، ثم قال: يا حسن، اعلمْ أن هذه المرأةَ والدتي، والقارورةَ فيها ماءٌ، قصدتُ امتحانك، حتى نعلمَ أنَّك بصيرٌ أم أعمى؟ فتعجَّبَ الحسن، واعتذر، وتحقّقَ أنّه كان مبعوثًا لامتحانه من الله تعالى، ثم قال له الحسن: للهِ كما صرتَ سببًا لنجاة هؤلاء الغرقى، فأنجني؛ فإنّي غريقٌ في بحر العُجْب. قال الأسود: أقرَّ اللهُ عينك. فصارَ الحسنُ بعده إلى حيث ما كان يرى نفسَه خيرًا من أحدٍ أصلاً، حتى رُويَ أنّه رأى كلبًا، قال: إلهي، اجعلني مُساويًا لهذا الكلب. فقيل له في ذلك، فقال: إنّي إن قفزتُ عن هذه الورطة فلا شكَّ أنا خيرٌ منه، وإن بقيتُ في هذه الورطة والحالِة فهو خيرٌ منّي بعزّة الله تعالى.

نقل عنه رضي الله عنه أنه قال: أعجبني أربعُ كلمات سمعتُها من أربعةِ أشخاص:

الأولى: سمعتُ مخنّثًا قد عيّرتُ عليه، قال: يا شيخ، لا تتنفّر عنّي، ولا تطوِ ذيلك منّي، فالأمرُ في ثاني الحال، ولا شكَّ أنَّه مخفيٌّ علينا، والله أعلم بالعاقبة.

والثانية: رأيتُ رجلاً سكران وقعَ في ماءٍ وطين، يمشي ويتمايلُ من الجانبين، يقومُ مرّةً ويقعُ مرّةً أُخرى، قلت له: ثبّتْ قدميك يا مسكين حتى لا تزلَّ. قال السكران: أنت يا شيخ ثبّتْ قدميك حتّى لا تزلَّ مع هذه الدعوى؛

فإنّك إنْ وقعتَ لا تقومُ أبدًا، وإنّي إنْ وقعتُ وتلطَّخَ ثوبي بطينٍ وأنا رجلٌ سكران فأغسله والأمرُ هيّنٌ. فهذا الكلامُ قد أثَّرَ في قلبي تأثيرًا عظيمًا.

الثالثة: رأيتُ صبيًّا معه ضوءٌ، قلت له: من أين جئت بهذا الضوء؟ فنفخ فيه، وأطفأه، وقال: قل يا شيخُ أينَ ذهبَ حتى أنا أقولُ من أين جاء.

أقول: لعلَّ الإشارةَ فيه أنه انعدم، وذهبَ إلى العدم، كما أنّه جاءَ من العدم، وأشار الصبيُّ بذلك إلى أنَّ الإنسان أوجده الله تعالى من العدم، ثم يعودُ ثانيًا إلى الفناء، ومن هذا يظهر سرُّ المبدأ والمعاد، وينكشف كثيرٌ من أسرار العلم والعمل. والله أعلم.

والرابعة قال: رأيتُ امرأةً ذات جمالٍ، منكشفَةَ الوجه، مُغتاظةً من الزوج، خرجَتْ من البيت تشتكي من زوجها، فلمّا وصلتْ إليَّ قلتُ: يا فلانة، أولاً استري وجهَكَ ثم تكلّمي. قالت: يا شيخ، واللهِ، إنّي غرقتُ في محبّةِ مخلوقٍ إلى حيث ما بقي لي إدراكٌ ولا شعور بأنَّ وجهي مكشوفٌ أم لا، فإنّك لو لم تُخبرني بذلك ما كنتُ أعلمُهُ، وأدخلُ السوقَ على هذا الحال، ولك دعوى عظيمةٌ في محبّة الله تعالى مع هذا كيف رأيت وجهي؟! فلستَ مشَغولاً بحبيبك.

نقل عنه أنَّه قال لأصحابه: ما أشبهكم بأصحابِ رسول الله ﷺ. والظاهرُ منه أنّه استهزاءٌ منه بهم؛ لأنّه قال بعده: فإنّكم لو رأيتموهم لقلتُم: إنهم مجانين، وإنّهم لو رأوكم لقالوا: ما شَممتُمْ رائحةَ الإسلام، فإنهم كانوا فارسين على الجياد، وتركوا الدنيا، واشتغلوا بالدين واليقين، وأمّا نحن فمشغولون بجيفةِ الدنيا وحطامها كبعضِ الطيورالواقع[1] على الجيف.

نقل عنه أنّه جاء إليه أعرابيٌّ، وسأل عن الصبر، فقال رحمه الله: هو على قسمين: الأول الصبرُ على البلاء والمصائب[2]. والثاني الصبرُ عمّا نهى الله

(١) في (ب): الطيور الواقف.

(٢) في (ب): البلاء، أي المصائب.

عنه. قال الأعرابيُّ: ما رأيتُ أزهدَ منك، ولا أصبرَ منك! قال رحمه الله: أما زهدي فللرجاء، وأما صبري فللجزاء، فطوبى لمن يكونُ زهدُه وصبرُه للحقِّ لا لشيءٍ آخر. قال الأعرابيُّ: اشرح لي هذا الكلام، إذ شوّشتَ عليَّ اعتقادي. فقال رحمه الله: زهدي في الدنيا للرَّغبة في الآخرة، وهذا عينُ نصيبِ النفس، وصبري على البلايا والطاعات لرجاءِ الأمن من عذاب النار.

ومن كلامه أنه قال: لا بدَّ للمؤمن[١] من علمٍ نافع، وعملٍ كاملٍ مع الإخلاص، وقناعةٍ مشبعة مع الصبر، ثم بعد حصول هذه الأمور لا أعلم ماذا يُفعل به.

وقال: الشاةُ أكثرُ تنبُّهًا من الإنسان، فإنها تتركُ الرعيَ عند صياح الراعي، والناسُ لا ينزجرون عن المعاصي باستماع كلام الله تعالى.

وقال: القرينُ السُّوء يورث الظنَّ السوء بالجياد.

وقال: الطلب إلى الخمر أحبُّ إليَّ من الطلب إلى الدنيا.

وقال: المعرفةُ أن لا تجدَ في نفسك مثقالَ ذرَّةٍ من الخصومة.

وقال: أولُ ما يدخل أهلُ الجنة فيها يُغشى عليهم ثمانية آلاف سنة؛ لأنَّ الله تعالى يتجلّى لهم، فإن نظروا إلى جلاله يسكرونَ من هيبته، وإن نظروا إلى جماله يغرقون في بحر الحيرة[٢].

وقال: الفكرةُ مرآةٌ تُريك الحسنات والسيئات.

وقال: من لا يكون كلامُه عن الحكمة فهو عين الآفة، ومن لا يكون سكونه عن الفكرةِ فكلُّه سهوٌ وغفلة، وكلُّ نَفَسٍ[٣] ليس على وجه العبرةِ فهو زلَّةٌ ولهو.

وقال: مكتوبٌ في التوراة: مَنْ قنعَ لا يحتاج إلى أحدٍ، ومن اعتزلَ عن

---

(١) في (أ): لا بدّ للمرءِ من علمٍ.

(٢) في (أ): في بحر حيرته.

(٣) في (أ): وكلُّ نظرٍ.

الخلقِ سَلِمَ، ومن وضعَ الشهوةَ تحت رجله عُتق، وإذا تركَ الحسدَ ظهرتِ المروءة، ومن صبرَ أيامًا معدودةً قليلةً عاش دهرًا لا آخرَ له.

وقال: للورع ثلاثُ مقامات:

المقام الأول: أن لا يتكلَّمَ العبدُ إلاّ بالحق، سواءٌ كان في الغضب أو في الرضا.

الثاني: أن يحفظ أعضاءَه عمّا لا يرضى الله به.

الثالث: أن لا يقصدَ إلاّ شيئًا يرضى الله تعالى به.

وقال: ذرةٌ من الورع خيرٌ من مثقالٍ من الصوم والصلاة

وقال: أفضلُ الطاعات كلِّها الفكرُ والورع.

وقال: لو علمتُ أنَّ ليس في نفسي نفاقٌ لكانتِ النفسُ أحبَّ إليَّ من جميع الأرض وما عليها

وقال: اختلافُ الظاهر والباطن واللسان والقلب من النفاق

وقال: المؤمنُ من يكون ليِّنًا ساكنًا، لا يعمل ما يقدر عليه، ولا يقولُ ما يخطر

وقال: لا غيبةَ لثلاثة أشخاص: لصاحبِ الهوى، وللفاسق، والإمام الظالم

وقال: مسكينٌ ابنُ آدم؛ رضي بدارٍ حلالُها حساب، وحرامُها عذاب

وقال: نفس ابن آدم لا تُفارقُ الدنيا إلاّ بثلاث حسرات: الأول ما شبعَ ممّا جمع، والثانية ما حصلتْ له آماله، الثالثة ما حَصّلَ زادًا، وبين يديه مسافةٌ بعيدة.

قيل: فلان في تعبٍ ومشقَّةٍ من سكرات الموت. قال: لا، بل كان في التعبِ منذ سبعين سنة، واليوم يستريح من هذا التعب والنصب، لا ندري كيف يكون حالُهُ بعد هذا.

وقال: نجا من حمل خفيفًا، وهلكَ من حملَ ثقيلاً كما قال ﷺ: «نجا المخففون، وهلك المثقلون»[١].

وقال: رحمَ اللهُ امرأً تكون عنده وديعةٌ، فيسلّمها إلى صاحبها، ثم يسافرُ خفيفَ الحمل.

وقال: العاقل الكيِّسُ رجلٌ خرَّبَ الدنيا، وأسَّسَ على ذلك الخراب الآخرة.

وقال: ليس دابةٌ أولى باللِّجام من النفس.

وقال: إن أردتَ أن تعرفَ الدُّنيا بعدك، فانظر إلى الدنيا بعد غيرك.

وقال: الرجلُ الذكيُّ الفطن من خرّبَ الدنيا، وبنى الآخرة على ذلك الأُسِّ.

وقال: عرفَ من كان قبلكم من المسلمين قدرَ الكتاب الذي أَنزلَ اللهُ عليهم؛ فبالليل تأمَّلوا في معناه، وبالنهار اشتغلوا بالعمل بما فهموا منه، وأنتم اكتفيتم منه بالمُدارسةِ وتصحيحِ حروفه وإعرابه، وتركتم العملَ، وجعلتموه وسيلةً إلى الدنيا.

وقال: واللهِ ما أعزَّ أحدٌ الذهبَ والفضة إلاّ أذلَّه الله تعالى.

وقال: إنْ أردتَ أن تأمرَ أحدًا بشيءٍ فلا بدَّ أن تعملَ به أنت أولاً، ثم تأمره به.

وقال: من جاءَ بكلامِ الناس إليك، يمشي بكلامِك إلى الناس. يعني من أفشى سرَّ الناس عندك يُفشي سرَّك عند الناس[٢].

وقال: الإخوان أعزُّ إلينا من الأهلِ والعيال؛ فإنَّ الأخَ الصالح[٣] يُعينك على الدين، والأهلُ والعيال خصمُك في الدين؛ لأنهم يُفسدون عليك أمورَ دينك.

---

(١) ذكره العجلي في كشف الخفا ٢/ ١١٠ من قول أويس، وسيذكر المؤلف رحمه الله هذا القول صفحة (٧٥) من أقوال مالك بن دينار.

(٢) هو من قولهم: من نمَّ لك نمَّ عليك.

(٣) في (ب): فإن الرجل الصالح.

وقال: ما أنفق الشخصُ على نفسهِ وعلى عياله وعلى أبويه فعليه حسابُه إلاّ ما أنفقَ على صديقٍ في الدين أو أطعمه، فليس له حساب.

وقال: صلاةُ شخصٍ لا يكون قلبُهُ حاضرًا إلى العقوبة أقرب.

وقيل له: إنَّ في جوارك شخصٌ اعتزل عن الناس، وما صلّى الصلاة في الجماعة منذ عشرين سنة، فمضى إليه الحسن رحمه الله وقال: يا فلان، لِمَ لا تخالط الناس، ولا تُصلّي بالجماعة؟ قال: لأنّي معذورٌ مشغول بما يمنعني من ذلك. قال: وماذا؟ قال: لا يصعدُ منّي نَفَسٌ إلاّ وله عليَّ نعمةٌ، ويصدر منّي معصيةٌ، فأشتغلُ بشكر إنعاماته وعذر عصياناتي. قال الحسن: كنْ على ما أنت عليه؛ فإنك خيرٌ منّي.

وقيل له: طابَ لك وقتٌ في الدنيا؟ قال: نعم، كنت يومًا من الأيام على سطح بيتي، سمعت امرأةَ جارٍ لي تقول لزوجها: منذ خمسين سنة أنا امرأتك وفي بيتك، وكنتُ راضيةً منك بالقليل والكثير، قانعةً بالجليل والحقير، ما أفشيتُ لك سرًا، ولا تَوانيتُ في خدمةٍ، ولا طلبتُ منك زيادةً في النفقة، ولا اشتكيتُ منك إلى أحدٍ، وأنا راضيةٌ منك بكلِّ ما تعملُ معي، ولكن لا أرضى بخصلةٍ واحدةٍ، ولا أَصبرُ عليها. قال: وماذا؟ قالت: إنّي عملتُ معك كذا وكذا لأنظر إليك، وأنت تَنظرُ إلى غيري، وأميلُ إليك، وأنت تميلُ إلى غيري. كأنَّها تشتكي من نظرِ الزوج إلى ضرَّتها. قال الشيخ رحمه الله: فطابَ وقتي، وجرى الدَّمعُ على خدّي، ثم طلبتُ من كلام الله تعالى نظيرَ كلام المرأة، فوجدت قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

حكي أنه رحمه الله مرَّ بقومٍ في عيدٍ كانوا يَضحكون ويلعبون، قال: أَتعجَّبُ منهم، يضحكون ويلعبون، ولا يعلمونَ عاقبةَ أمرِهم وأحوالهم!

قيل له: كيف حالك؟ قال: كيف يكون حالُ من كان في سفينةٍ فانكسرتْ، وأخذ كلٌّ لوحًا واستمسكَ به؟ قالوا: حالٌ صعب. قال: حالي كذلك

وحُكي أنّه رأى رجلاً يأكل الطعام في بعض المقابر، فقال: إنه منافق. قيل: لِمَ؟ قال: من تتحرَّكُ شهوتُهُ للطعام بين هذه الموتى، فكأنّه لا يؤمن بالموت واليوم الآخر، وهذا علامة النفاق

وحكي أنه رحمه الله كان يقول في بعض مناجاته: إلهي، أَنعمتَ عليَّ وما شكرتُك، وأنزلتَ عليَّ بلياتٍ وما صبرتُ، وعلى هذا فما قطعتَ عنّي نعمك، وما أدمتَ عليَّ البلاء، فأنت كريمٌ لطيف، لا يظهرُ منك إلاّ الكرمُ واللطف.

قيل: لمّا حضرته الوفاة، تبسَّمَ وقال: أيُّ ذنبٍ؟ وتوفّي رحمه الله تعالى مع أنَّه ما تبسَّمَ في حال حياته قطُّ، فرآه بعضُ الصالحين في المنام، وقال له: ما رأيناك مُتبسّمًا في حياتك قطُّ، فما كان سببُ تبسُّمك عند الموت؟ وما معنى قولُك حينئذٍ: أيُّ ذنبٍ؟ قال: سمعتُ صوتًا يقول: يا ملكَ الموت، شدّدْ عليه، فقد بقي عليه ذنبٌ، فتبسَّمْتُ فرحًا من أنّه بقي عليَّ ذنبٌ واحد، ثم قلت: أيُّ ذنب هو ذلك؟ وخرجتُ من الدنيا.

ورأى رجلٌ من الصالحين أنَّ أبواب السماء قد فُتحَتْ، وينادي منادٍ ويقول: وصلَ الحسُن إلى ربِّه وهو عنه راضٍ، رضي الله عنه

* * *